



أشخاص

فاضل الربيعي

الأنثروبولوجي المشاكس لا تكفيه الأسطورة



في «مكتبة لايدن» في هولندا، وقع على آلاف المخطوطات العربية التي تعجُّ بالأخطاء والخطايا. من هناك، بدأ رحلته المشوّقة في إعادة بناء المرويات العربية القديمة، من السبي البابلي، إلى حقائق اورشليم والتوراة، وصولاً إلى المناخات العظيمة، وسيرة امرئ القيس... الكاتب والأنثروبولوجي العراقي يطمح إلى تاصيل ممارساته الفردية، في مناهج أكاديمية صارمة

الندب والعنف الجسدي، إذ يتجاوز طقس عاشوراء، ليعيده إلى جذوره الأولى التي تمتد إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، عندما كانت المناحة تجري على «تموز وعشتار» في بلاد الرافدين، و«إيزيس وإيزوريس» في مصر الفرعونية. يشرح فكرته قائلاً: «هذه المناحة جزء من ثقافة بكائية لا تزال مستمرة إلى اليوم، وتالياً فهي ليست بدعة، كما تنظر إليها بعض الطوائف، فطقس النواح على تموز انتقل لاحقاً إلى بيوت العبادة، واتخذ أشكالاً مختلفة في التعبير عن ثقافة محلية محمولة على وعي أسطوري». وهناك كتاب آخر سيصدر قريباً بعنوان: «إساف ونائلة: أسطورة الحب الأبدي في الجاهلية».

لا يبدو فاضل الربيعي متفاوتاً بواقع مراكز البحوث العربية الرسمية في تبني أفكاره المثيرة للجدل، فهو يصفها بأنها «مضيعة للوقت والجهد». يأمل بظهور مدرسة للأنثروبولوجيين العرب، تؤسس تياراً جديداً لنسف الأطروحات الاستشراقية، ودحض مقولاتها الزائفة، وتأسيس مناهج بحث تاريخية في الجامعات لزعة النظرة القديمة للتاريخ العربي والإسلامي. أولى هذه المحاولات في هذا الشأن، اتفاق مجموعة من الأنثروبولوجيين العرب على إعلان حركة «مفكرون ضد التزوير»، مهمتها تأسيس تيار نقدي للتوراة، وإطلاق موقع إلكتروني على شبكة الإنترنت كي يكون فضاءاً للسجال والتاريخ المضاد.

5 تواريخ

- 1952 الولادة في بغداد
- 1976 صدور مجموعته القصصية الأولى «أيها البرج يا عذابي» في بغداد
- 1979 غادر بغداد إلى تشيكوسلوفاكيا، ثم إلى عدن في اليمن الجنوبي وعمل محرراً في صحيفة «الثوري»
- 1996 استقرّ في هولندا وتفرغ للبحث في التاريخ والأسطورة
- 2011 أنجز خمسة كتب، صدر منها «حقيقة السبي البابلي»، و«غزال الكعبة الذهبي» (دار جداول - بيروت)

التاريخية حادثة السبي البابلي على أنها وقعت في فلسطين؟ يفسر صاحب «حقيقة السبي البابلي» بقوله: «السبب هو احتكار رواية الفاجعة التي جرى تكرارها لاحقاً برواية «المحرقة» بوصفها استكمالاً للاضطهاد التاريخي لليهود، وترسيخ دور الضحية التاريخية، وما علينا إلا أن نعود إلى تاريخ الطبري الذي يورد بوضوح أن غزو نبوخذ نصر كان إلى اليمن لا إلى فلسطين». انطلاقاً من هذه الكشوفات المغايرة، يصل الربيعي في أطروحته إلى استنتاج راسخ وهو أن اليهودية دين عربي قديم، وأن التوراة كتاب من كتب اليمن، وأن اورشليم ليست هي القدس، ومكانها في اليمن وليس في عسير، كما قال المفكر الراحل كمال الصليبي في كتابه «التورات جاءت من الجزيرة العربية». والسبب أن عسير لا تتسع كمسرح للأحداث، وينبغي توضيح الفرق بين بني إسرائيل كقبيلة من جهة، وكدين من جهة ثانية. لكن إلا تحتاج هذه الرؤية إلى خلخلة ما رسخه المخيال الاستشراقي عبر مئات الأبحاث التي باتت وقائع تاريخية؟ يقول: «ليس لدي أية أوهام بأن هذه الأفكار ستنتصر قريباً، بوجود قوة إعلامية هائلة تهيمن على السرد التاريخي. يكفي أن نسعى إلى كتابة تاريخنا من منظور نقدي، بعيداً عن الأكاذيب الاستشراقية، ولعل ما أنجزه إدوار سعيد في هذا السياق خلخل هذه النظرة إلى حد كبير».

هذا النسف المضاد للأطروحات التاريخية لا يتوقف عند تاريخية فلسطين، بل يتعداه إلى قضايا شائكة أخرى. في كتابه «أبطال بلا تاريخ» يميّط اللثام عن شخصية امرئ القيس، ليكشف عن 24 شخصية تحمل هذا الاسم بصفات مختلفة، فهل هو الشاعر، أم الملك الضليل، أم الفارس؟ «إنها أخطاء المرويات الشفاهية التي انتهت إلى دمج كل هذه الصفات بصاحب معلقة «قفا نبك»، يقول. استغراقه في تفنيد الأسطورة، وتصفيته من شوائب الخرافة، ونسل الخيوط التاريخية من نسجها، يبدو للوهلة الأولى كمن يحرث في الماء، لكن صاحب «يوسف والبئر» لا يعبا بهذه المعوقات، استناداً إلى وقائع تاريخية تنطوي على دلائل مهمة في خزائن التراث العربي، وفي المكتشفات الأثرية التي يجري التعنيم على بعضها، وفي قراءة الشعر الجاهلي من منظور مختلف بوصفه معجماً ثرياً للأمكنة التاريخية.

يعمل فاضل الربيعي على أكثر من مشروع في وقت واحد، عدا «حقيقة السبي البابلي: الحملات الآشورية على الجزيرة العربية واليمن»، و«غزال الكعبة الذهبي: النظام القرابي في الإسلام»، فهو يضع للمسات الأخيرة على كتابه «المناحة العظيمة»، وهو قراءة في تاريخ

ذلك أحد أهم المراجع التاريخية التي جرى إهمالها طويلاً، والمقصود به كتاب الهمداني «صفة جزيرة العرب». يقول مؤكداً: «ما وصفه الهمداني لجغرافية الأمكنة، يتطابق حرفياً مع نصوص التوراة العبرية». ويضيف بانفعال: «لماذا بصمت الآثاريون والمؤرخون عن النقوش الحميرية التي عُثر عليها في مواقع فلسطينية؟». قبل أن يجيب: «لأن التاريخ العربي روي بصوت الآخر، وبتأثير القراءة الاستشراقية للتوراة التي رسخت معتقدات زائفة، أطلحت المرويات العربية، وجرى إهمال ما رواه الطبري والمسعودي وابن الأثير باعتباره مرويات أسطورية، وهذا ما كرّس نظرة ازدرائية لنصوص الإخباريين العرب. مهمتي هي فصل ما هو أسطوري عما هو تاريخي». لا تتوقف المفاجأة عند هذا الحد. يقول صاحب «أبطال بلا تاريخ» يقول متحدثاً «اعطني مثلاً واحداً في التوراة يذكر مدينة القدس؟»، مذكراً بأن هذه المدينة كان اسمها «إيلياء» في العهد الروماني، لا القدس، وتالياً ليس هناك نص إخباري عن القدس قبل الفتح الإسلامي.

تتحدث التوراة، وفقاً لما يسجله الربيعي، عن اورشليم ومكانها الجغرافي في اليمن وليس في فلسطين. «هذا ما أثبتته النقوش الآشورية والبابلية، فهي تذكر تسع حملات سبي جرت في اليمن، لا في فلسطين». لكن، لماذا رسخت المرويات

خليف صويلح

كأي مثقف عراقي، فإن خصومه أكثر من أصدقائه. الشيوعي السابق، هجر صفوف اليسار العراقي بتأثير وعي آخر، راكمته تجارب المنفى وانكسارات الأحلام. هجراته المتلاحقة بين أكثر من منفى انتهت به إلى هولندا. المادة الديالكتيكية قادت عبر دروب متعرجة إلى الأسطورة. هنا حظ فاضل الربيعي رحاله. قربه من «مكتبة لايدن» في هولندا التي تضم آلاف المخطوطات العربية المجهولة، شجعه على نبش التاريخ العربي القديم، من موقع أنثروبولوجي... وإذا به أمام مدوّنّة ضخمة تعجُّ بأخطاء التاريخ وخطاياها. منذ هذه اللحظة، قرر صاحب «عشاء الماتم» إعادة بناء المرويات العربية القديمة، وتصحيح تاريخ فلسطين على وجه الخصوص. هكذا بدأ مشروعه الموسوعي بكتاب «فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم»، ناسفاً النظريات الاستشراقية عن فلسطين التوراتية. حكاية السبي البابلي لليهود كانت مفتاحه في إعادة رسم تضاريس المكان، وإذا به يقع في اليمن، لا في فلسطين. نسأله عن مرجعياته التي استند إليها في أطروحته المغايرة، فيشير أولاً إلى التوراة المكتوبة بالعبرية القديمة، والنقوش التاريخية، والشعر الجاهلي، وقبل

في مشروع «فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم»، نسف النظريات الاستشراقية المتعلقة بفلسطين